من وحي الصوم :

رمضان عند الأدباء . .

للأستاذ محمد رجب البيومي

يتمتع شهر رمضان المبارك بمنزلة طيبة فى نفوس الكثرة الغالبة من المسلمين ، فأنت تراه ضيفاً محبوباً يُستقبل حين قدومه بشتى مظاهر المحبة والابتهاج ، ويُودّع حين رحيله بدموع الحسرة والالتياع . وإذا كنا نسمع فى أخبار الماضين من رجال السلف الصالح رضى الله عنهم أنهم كانوا يعزون أنفسهم فى الليالى الأخيرة من رمضان ، فإننا لا نزال نرى بأعيننا الفسقة والعصاة من المؤمنين يجترحون السيئات ويقترفون الموبقات ، حتى إذا وجدوا أنفسهم فى حرم رمضان ضجت ألسنتهم بالتهليل والتكبير ، وارتعدت فرائصهم من خشية الله ، ولزموا حلقات الدروس فى المساجد يستنشقون روائح الجنة من نسمات هذا الشهر المبارك !

ولكن فريقاً من الأدباء — عفا الله عنهم — قد أخذوا يغازلون شهر الصيام مغازلة شكا منها إلى ربه ، ثم تحولت المغازلة على ممر الأيام إلى عداء مستحكم ، فبعد أن كان الشاعر لا يزيد على قوله :

نُبئتُ أن فتاة جئت أخطبها
عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

أو قوله :

أتأمرنى بالصوم لا درّ درها وفى القبر صوم يا أميم طويل

بعد أن كان لا يزيد على ذلك وجدنا الأمر قد استحال فجأة إلى هجولاذع ، وسب مبرح ، لا نظن إلا أن الله عز وجل سينتقم للظالم فيه من المظلوم يوم يقوم الناس لرب العالمين

وأول من أعلن هذه الحرب الظالمة — فيما نعلم — هو هذا الأعرابى الغدّم الذى يروى ابن قتيبة فى عيون الأخبار قصته فيقول :

« قدم أعرابى على ابن عم له بالحضر ، فأدركه شهر رمضان ، فقيل له : يا أبا عمرو ، لقد أتاك شهر رمضان ! قال : وما شهر رمضان ؟ قالوا : الإمساك عن الطعام ! قال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا : بل بالنهار ؛ قال : أفيرضون بدلا من الشهر ؟ قالوا : لا ؛ قال : فإن لم أصم فعلوا ما ذا ؟ قالوا : تُضرب وتُحبس ... فصام أياماً فلم يصبر ، فارتحل عنهم إلى غيرهم وجعل ينشد :

يقول بنو عمى وقد زرت مُصرهم تهيأ أبا عمرو لشهر صيام
فقلت لهم هاتوا جرابى ومزودى سلام عليكم فاذهبوا بسلام
فبادرت أرضا ليس فيها مسيطرٌ علىّ ولا مُتّاع أكل طعام »

كانت هذه القصة بذرة سيئة تولدت منها تلك الحملة الطائشة التى شنها الأدباء على رمضان . ومهما يكن من شىء ، فقد حركت ما سكن فى النفوس ، وأطلقت ما حبس فى الصدور ، فخرج الأدب بصفقة رابحة كان ضحيتها رمضان المسكين ! ولعل عزاءه فى ذلك قول الله عز وجل : « والشعراء يتبعهم الغاوون » !..

على أن كثيراً من الأدباء كانوا أقدر على ضبط ألسنتهم من إخوانهم الذين تورطوا فى معاداة هذا الشهر العظيم ، فنحن نقرأ فى تاريخ البحترى مثلا أنه كان ضائق الصدر برمضان ، متبرم النفس بطوله ، ونتلمس ذلك فى شعره ، فلا نجد إلا متفرقات يسيرة لا تطفئ أواما ، ولا تبل غليلا ، كأن يقول :

فتروّ من شعبان إن وراءه شهراً سيمنعك الرحيق السلسلا

ثم يكرر هذا المعنى مرة وثانية وثالثة ، فإذا هاج صبره بعد مرور سبعة وعشرين من عمر رمضان لم يزد على أن يطلب من الله عز وجل أن يجعل الشهر كله ليلا حتى لا يجد النهار الذى يصوم فيه عن الطعام والشراب ، وفى ذلك يقول :

قد مضت سبعة وعشر وعشر ما تذوق اللذات إلا لماما
ما على الليل لو أقام علينا أو يرانا من الصيام صياما

أما ابن الرومى ، فقد أطلق العنان لقريحته الوقادة ، وانهال على رمضان بسياطه المحرقة حتى مزق جلده ، وشوه أديمه ، وتعليل ذلك واضح يسير ، فالبحترى على رغم ما له من جاه عريض لدى الخلفاء والرؤساء كان نكساً رعديداً يقول الهجاء ، فيقبض يده على قلبه ويُرسل وراء شعره العيون والأرصاد يتجسسون لدى المهجوّ ، ويخبرونه بموقع هجائه من نفسه ، فإن لم يُلق له بالا حمد الله على السلامة . وإن كانت الأخرى أخذ يتزلف ويتوسل ويُحبّر النابغيات الطويلة فى الاعتذار ، وحسبك أن تعلم أنه حين قال فى قصيدته القافية

ولم أر كالدنيا حليلة صاحب تحب متى تحسن بعينيه تطلق
تراها عيانا وهى صنعة واحد فتحسبها صنعى حكيم وأخرق

حين قال ذلك شنع عليه أحد العامة بأنه ثنوى ، نخاف على نفسه وقال لابنه أبى الغوث : قم بنا نخرج من بغداد خروجاً نأمن على أنفسنا فيه ، ثم خرج ولم يعد ، فشخص نفسيته ضعيفة خائرة كالبحترى لا يجد الشجاعة الكافية التى يذم بها رمضان على رءوس الأشهاد . ولا كذلك ابن الرومى ، فقد كان جسور القلب حاد اللسان يسوق الهجاء فى الوزراء وذوى الشأن فى الدولة ، ثم يتزايد ويتسع فيه دون مبالاة أو اكتراث مما أدى إلى حتفه فى النهاية ، فمات ولم يستمتع بخاطره ، ولم يتزح زكية فكره — كما قال الصولى — فإذا كان هذا شأنه ، فغير كثير عليه أن يسلط لسانه على رمضان معبراً عما يختلج فى نفسه أصدق تعبير . والحق أن هذه ميزة ابن الرومى يصدر عن طبعه وينقل عن خاطره مهما جلب عليه ذلك من الشرور والويلات ، والجنون فنون

بدأ ابن الرومى حملته بتأدب ملموس ، فلم يشأ أن يهجم بادئ ذى بدء بما هجم به أخيراً من الذم والقدح ، بل اكتفى بإعلان تبرمه بطوله الممتد ، وود لو مر كالسحاب ، وكان جميعه كيوم أو بعض يوم ، وقصارى حيلته أن يدعو عليه ، وأن يرحب بأيام الفطر اللذيذة فيقول :

إذا بركت فى صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك فى شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الشهر فيه كان يوماً ومر نهاره مر السحاب
فلا أهلا بمانع كل خير وأهلا بالطعام وبالشراب

ويظهر أن ابن الرومى قد وجد أبياته صادفت رواجاً محموداً لدى من يشاركونه عواطفه وميوله — وكثير ما هم — فهجم على شهر الصيام مرة أخرى ولكن بلسان أحد ، ولهجة أعنف ، وقسوة أشد ، فود بجدع الأنف لو انتهى قبل أن يبدأ ، وأعلن أن بركة هذا الشهر فى طوله لا فى خيره ، وزاد بأن تنازل عن الأجر الذى أعده الله له جزاء صومه ؛ فهو يقول :

شهر الصيام مبارك لكما جعلت لنا بركاته فى طوله
من كان يألفه فليت خروجه منى — بجدع الأنف — قبل دخوله
إنى ليعجبنى تمام هلاله وأسر بعد تمامه بنحو له
لا أستثيب على قبول صيامه حسبى تصرمه ثواب قبوله

وجائز جداً أن يكون ابن الرومى قد عانى صوم رمضان فى أوقات تلفحها حرارة الصيف كما نعانيه فى أوقاتنا هذه ، فهو لا يكتفى بما قدمنا بل يعيد الهجوم ثالثة ورابعة ، غير تارك بعده مجالا لقائل ، وليت شعرى ماذا ننتظر منه بعد أن يقول

شهر الصيام وإن عظمت حرمته شهر طويل ثقيل الظل والحركه
أذمه غير وقت فيه أحمده منذ العشاء إلى أن تصدح الديكه
وكيف أحمد أوقاتا مذممة بين الدءوب وبين الجوع مشتركه
يا صدق من قال أيام مباركة شهر كأن وقوعى فيه من قلقى
إن كان يعنى عن اسم الطول بالبركه وسوء حالى وقوع الحوت فى الشبك
لو كان مولىّ وكنا كالعبيد له لكان مولى بخيلاً سىء الملكه
قد كاد لولا دفاع الله يسلمنا إلى الردى ويؤدينا إلى الهلكه

على أن من التناقض الظاهر أن نرى ابن الرومى فى موضع آخر من ديوانه يهنئ أحد الرءوساء بشهر الصيام فينحى باللائمة على المستهترين به ، وما درى أنه بشعره هذا قد فتح الباب لمن جاء بعده ، ومهما يكن من شىء فقد ظهرت خفة روحه ظهورا أكسبه ملاحة وظرفا عند من يقدرون الأدب لذاته فهو على نقيض أبى العتاهية المسكين ، فقد أوقعه حبه رمضان وتعظيمه إياه فى مأزق مضحك ، قال ابن رشيق فى الجزء الثانى من العمدة « لما مات المهدى قام أبو العتاهية يرثيه على ملأ من الناس فقال

« مات الخليفة أيها الثقلان »

فرفع الحاضرون رءوسهم ، وفتحوا أعينهم وقالوا : نعاه إلى الإنس والجن ثم أتركه اللين والفترة فقال :

« فكأنى أفطرت فى رمضان » .

يريد أنى بمجاهرتى بهذا القول كأنما جاهرت بالإفطار نهارا فى رمضان وهذا معنى جيد غريب فى لفظ ردئ غير معرب عما فى النفس » ونحن نخالف صاحب العمدة فيما ذهب إليه من جودة هذا المعنى ولو كان كما قال ما قابله الجمهور بالسخرية والاستهزاء .

وإذا كانت كتب الأدب تروى عن أبى نواس أنه قد حج حجا غير مبرور حين جد فى طلب « جنان » فلم يظفر بطائل ، ثم علم أخيرا أنها ذهبت إلى مكة فسار وراءها متظاهرا بالخشوع والنسك وفى ذلك يقول :

ولما أن عيت وضاق صدرى ... بمطلبها ومطلبها عسير
حججت وقلت قد حجت جنان ... فيجمعنى وإياها المسير

إذا كانت كتب الأدب تروى ذلك ، فإنها تروى عن ابن الراوندى أنه قد صام صوماً غير مبرور — لو صح هذا التعبير — وذلك أنه كان سمينا بطينا ، فقالت له إحدى صواحبه : إن وراءك شهراً ثقيلا فصمه ليذهب عنك هذا السمن فأطاعها تلبية لرغبتها لا امتثالا لأمر ربه ، وهو يعلن هذا على العامة والخاصة فيقول فى تبجح وعناد :

وقائلة وقد جلست جوارى ... سمنت وكنت قبلئذ نحيفا
وراءك فى غد شهر ثقيل ... فصمه لكى تكون فتى نحيفا
لوجهك لا لوجه الله صومى ... ولو أنى لقيت به الحتوفا

وغير غريب من ابن الراوندى أن يقول ذلك فقد كان خبيث العقيدة سيء الطوية ، يعترض على كل شيء حتى على ربه فيعجب من مجرى الرزق فى أسلوب وقح ، ويهاجم الأديان فى تمرد سافل فكيف تستكثر عليه ما قاله فى رمضان ؟ إننا نستكثر ذلك على رئيس فاضل كابن العميد مثلا فقد كان جليل الخطر فى عصره ، مطاع الكلمة فى دولته ، ثاقب العقل ، وضىء التفكير ، ومع ذلك فقد تورط فيما تورط فيه غيره حين هاجم هذا الشهر مهاجمة نكتفى بأن ننقل منها هذه الفقرات « أسأل الله أن يقرب على الفلك دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويزيل بركة الطول عن ساعاته . ويرد على غرة شوال ، فهى أسنى الغرر عندى وأقرها لعينى ، ويطلع بدره ، ويسمعنى النعى لشهر رمضان ، ويعرض على هلاله أخفى من السحر ، وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر » إلى آخر ما جاء فى الجزء الثانى من زهر الآداب .

وكيفما كان الحال فقد فتح ابن العميد بذلك على رمضان ثغرة واسعة ، جعلته يستمع هجاءه شعراً ونثراً بعد أن كان يأمن على نفسه من ناحية النثر ويجيء بديع الزمان الهمذانى بعد ابن العميد وهو كما نعلم مولع بتقليده ، مقتف أثره ، فلا يفوته أن يهجو رمضان ، فيكتب إلى أحد رؤسائه قائلا « خصك الله بتقصير أيامه ، فهو وإن عظمت بركته ، ثقيلة حركته ، وإن جل قدره ، بعيد قعره ، فإن حسن وجهه فسوف يقبح قفاه ، وما أحسنه فى القذال وأشبه إدباره بالإقبال ، جعل الله قدومه سبب ترحاله ، وبدره فداء هلاله ، وأمد فلكه تحريكا ، بتقضى مدته وشيكا ، وأظهر هلاله نحيفا ، لنزف إلى اللذات زفيفا » ونحن لا نستنكر ذلك من الهمذانى كما استنكرناه من ابن العميد ، فقد كان بديع الزمان طويل اللسان ، حاد القذف ، متطاولا على غيره جاحداً حقوق أولى العلم والفضل ، فكيف يعترف بشهر رمضان وقد فتح له ابن العميد الباب على مصراعيه فقال ما قال !

وإذا كنا نستثقل الآن صوم رمضان فى وقدة القيظ وحرارة الصيف فقد وجدنا ابن عون الكاتب يستثقله فى فصل الربيع إذ يرى أنه زمان البهجة ، وأوان المتعة واللذاذة ، فلا ينبغى أن يكدر بالصوم وفى ذلك يقول

جاءنا الصوم فى الربيع فهلا ... تار ربعاً من سائر الأرباع
وكأن الربيع فى الصوم عقد ... فوق نحر فطاء فضل قناع

وإذن فالصوم عنده فى الربيع قناع أسدل على نحر مضيء فمنع إشراقه وحجب المتمتع برؤيته

أما القاضى الفاضل — وهو من المولعين أيضاً بمحاكاة ابن العميد — فقد نظم قصيدة خمرية طويلة جرى فيها مع اللذات إلى أبعد شوط وقد حرص على أن يهاجم فى مبدئها شهر رمضان — تقليداً لأستاذه — فقال

قضى نحبه الشهر بعد المطال ... وأطلق من قيد فتر الهلال
وروض كاتب جنبى اليمين ... وأتعب كاتب جنبى الشمال
فدع ضيقه مثل شد الإسار ... إلى فرجة مثل حل العقال

وهو بذلك قد وجه نظر أمير الشعراء رحمه الله إلى هذا المعنى بذاته فقال ولكن فى أسلوب أروع ونسج أحكم

رمضان ولى هاتها ياساقى ... مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على الافها ... وأقله فى طاعة الخلاق